عزة دياب

الوقوف على الجانب الآخر

قصص

دائرة الثقافة - الشارقة 2021

السجينة

راجعت فصول روايتي، أطبقت عليها دفتي الملف، أصابعي تتناوب الطرق القلق على وجه حافظة الأوراق.

أتمشى في صالة بيتي متعثرة في قطع الأثاث النابضة ببصماتي، والفرحة لأقل جهد أبذله للعناية بها.

انطلق صوت: يا من عذبتموني ابتعدوا، تواروا، ارحلوا قبل أن أتحول.

وجدت الرواية مفتوحة وأوراقها مبعثرة، تشكلت أمام عيني ملوحة في وجهي: لن أسمح لك بسجني مع هؤلاء.

نظرت إليها فزعة؛ كيف تترك سطوري وتقف أمامي، تظاهرت بالصرامة لأخيفها متوهمةً قدرتي على سحبها للحافظة الورقية؛ تتمدد على السطور وتكفن بالأوراق.

قالت: أنذرتهم بالرحيل قبل أن أتحول، وهذا ليس خوفا عليهم.

قاطعتها ضجرة: صنعتك من حرفي ومن جملي، الشخوص أوجدتهم لمساعدتك.

خفت أن يهجر الشخوص الرواية، تخيلتهم يقفزون منها كأنها سفينة غارقة، أكان علي تصوير الشخصية أم ترويضها؟!

لعينيها لمعة جعلتني على وشك تقديم اعتذار عن عذابي لها مع من لا يقدرها.

قالت: ساعديني في عزلهم في فصل من الفصول.

نظرت إليها غضبة: ما لك أنت، أعزلهم، أوزعهم.

نظرتها مثقلة بالتحدي: جمدي أدوارهم؛ فذلك أفضل من هروبي من نصك الظالم.

تحرك موروث الغل: ضعفك هو الذي جعلهم طغاة.

قالت: أريد لذاكرتهم الاحتفاظ برؤيتي ضحية بمنظورهم؛ مثالية، ليبقوا سجناء، مسربلين بجهلهم.

صرختُ فيها: واجهيهم؛ ذلك أفضل.

قالت: في تلك الحالة من سيكون كاتب النص؟

نظرتُ إليها بإعجاب أحاول إخفاءه، كيف للكاتب أن يصور شخصية أقوي منه؟!

قلت بتسليم: لك ما تشائين.

مدتْ كفها مبتسمة، عندما ضممتها شممتُ عطري المحبب الذي صاحبني لسنوات، قبل عطري الحالي المحبب لزوجي، آهٍ لو تدري أي حماس سكبته في قلبي تلك الرائحة.

روضة

جدول بخلفية خضراء، تظله سماء غائمة، على الجانب الآخر مقابر مطلية بالجير تتصدرها لوحات رخامية بأسماء أموات رابضين في ظهر القرية، يفصلها عن الجدول طريق مسفلت، كانت المقابر في آخر القرية، عندما مهد الطريق باتت في المقدمة، شجرة ضخمة مغبرة تحط عليها طيور مشاكسة.

أعبر الطريق بسيارتي، يهطل المطر، أحكم إغلاق الزجاج، أشغل المساحات، تدور كأنها عقارب ساعة.

تقف السيارة، لا تجدي معها محاولاتي، الجدول يفور كأنه يغلي، يفيض، تلعقه الأرض، كأن لها شفاهاً تستمتع بالارتشاف.

القبور قصرت وبدت بدون طلاء، وبدون لوحات رخامية، كلب يبول على أحدها، كلاب أخرى تستعرض أصواتها، المياه تواصل سيرها ملامسةً أعتابها.

وجوه تضغط على زجاج السيارة الأمامي، تعبيرها متنوع؛ من يبتسم ومن يخرج لسانه ومن يبكي، أسمع رفرفة تحرك الهواء حولي، فتح الباب؛ بل خلع.

خرجتُ من السيارة، لم تكن لهم أقدام تلامس الأرض، بقع المياه تبلل أطراف بنطالي، أتحرك في اتجاهات متضاربة، أسير على قدمين لا أراهما، أقطع مسافات لاهثة، وأجدني في نفس المكان، سألتُ أحدهم:

ألا يوجد قطار أو أي وسيلة لأخرج من هنا؟

لماذا تريدين هجرنا؟

أشرتُ إلي قدمي:

إني أتلاشى.

أليس هذا أفضل من أن يعفنهما الوحل؟!

أخذتُ في خناقه، انهار في يدي، نظروا لي مستنكرين، تقدم أحدهم:

قتلتِه، إنه روح بريئة.

وهل تموت الأرواح؟!

لن نقبلك بهذا العنف، تطهري وعودي.

دلني على طريق الخروج.

اعبري الجدول.

لا أعرف السباحة.

اربطي عنقك بحبل في فرع الشجرة.

لا أريد أن أموت.

ومن قال إنك على قيد الحياة.

ولماذا تفكر لي في ميتة؟!

ولماذا تتمسكين بحياة تريدين الخروج منها؟!

تحرك من اتهمتُ بقتله، مددتُ له يدي، شعرتُ أن هذه اللقطة حدثت من قبل، حين صدمته بالعربة، لا أذكر متى أو أين، لكنها حدثت، أراحني أنه لم يصب بأذى.

آسفة.

كنت في حاجة إلي حماقتك.

أغضبني رده، تنفش الكلاب فراءها بعد عبورها الجدول، الذي لا أجرؤ على عبوره، تكلم ببرود:

أنتِ لم تحاولي.

حدقت فيه مندهشة، رد:

كلنا هنا أفكارنا عارية.

لكني لا أرى أفكاركم.

لأنك لستِ منا.

لوحوا لي مودعين، وجدتني في سيارتي، وجه الجدول يجعده النسيم، الشجرة غسلها المطر من غبارها، نثرتُ زهوراً بنفسجية قطفتها من لبلابة لا أعرف أين جذرها، فاحت رائحة عطرة، تفرق السحاب، جف الإسفلت، تحركتُ بسيارتي متجنبة أفكاري العارية.

رؤية

يتأرجح ثقل بين جوانحي، أنظر إلى الناس من حولي، أيرون حملي؟! أيحملون مثله؟! تخور قدماي تحت ثقلي.

سمعتُ صوتا محايدا:

أنا حارس التابوت.

أي تابوت؟ أيوجد حارس غيرك؟

التابوت المتأرجح في صدرك، إذا وجد غيري سيعلن عن نفسه.

قلت في حزم:

ساعدني في فتحه.

جاء صوته أكثر حزما:

من قال إن التابوت مغلق، إنه مفتوح، أنت لا تتواني عن الدفع إليه بالموتى.

أين كنت من قبل؟

لم يكن من المفترض وجود تابوت لديك، لكنه وجد وبالتالي وجدت.

أأنا الوحيدة التي أحمل تابوتا بداخلي؟!

لا يعنيني هذا، المهم أني مكلف بالحراسة الآن.

من كلفك؟

كلفني من أوجدك، فقد كلفتُ بحراسة توابيت كثيرة من قبل.

ارتحت لرده مع أني لا أعرف قصده بمن أوجدني أم أوجد التابوت، أراحتني معرفته أني لست وحدي من لديها تابوت.

ولماذا تركت التوابيت؟

رائحتها العفنة.. عندما فتحت التوابيت لم أستطع الوقوف وحين عدت لم أجدها في أماكنها، وبالتالي؛ ليس هناك ضرورة لوجودي.

شعرت بضيق، كأني أحمل تشوها وعلي التواري، كي لا تعذبني الشفقة أو التشفي.

رجرجة في صدري، توحي بانفتاح شق واندلاع ما فيه، لا أشم رائحة عفن، كانت الذكريات بلا أصحاب.

جاء صوت الحارس عميقا:

قد يفسر هذا الحكمة من ترك التابوت مفتوحاً.

ناولني كل ذكرى باسم صاحبها، وما إن ألمسها حتى تنطبق يدي على رماد.

أين أصحابها الآن؟

في حياتهم، تركوا أجزاء منهم عندك وأجزاء منك عندهم.

قلت ساهمة:

أجزاء مني تقبع في توابيتهم!

من هذه الجميلة؟ هادئة كأميرة نائمة، بشرتها الناعمة ليست لميت.

اعتدلت في جلستها، قالت بصوت ناعس:

جيد أنك أبعدتِ من كانوا حولي، كانوا يقتنصون مني الأنفاس.

من أنت؟!

ألا تعرفيني؟! ألا يعرف القاتل القتيل؟!

لم أقتل.

نحيتني جانبا.. أهملتِني حتى الموت، لمتعتك وجنونك وأحلامك.

هذبت من جنوحي.

انتهى وقت الكلام.

تعملقت، جذبتني من يد والحارس من يد، أسكناني التابوت وأغلقاه.

السير بمحاذاة الساحل

التقط يديها غير مصدق أن هذا الحفل وهذه الزينة أعدت من أجل خطبتهما، كم انتظر هذا اليوم على أحر من الجمر.

تلمع عيناها فتتجاوب مع لمعة عينيه عشقا.

جلست بجواره في السيارة، لينطلق بها إلى الكازينو المعد للحفل، تجاوزه وأشار لمن سبقه من المعازيم بأنه سيلف حول الشاطئ ويعود..

سار بمحاذاة الساحل ؛ الأضواء المطوقة للنهر ترصع ثوبه الأسود، وتختفي كلما زادت ضربات الهواء المنعش لوجهه وهو يجتاز النهر وينطلق صوب البحر.

تحدثه فلا يسمع صوتها، انفرجت شفتاه تزيح الصمت:

بعيدا أبعد من هذا الزبد كان شاطئنا القديم؛ دكان أبي على المياه العذبة بجواره صف من الدكاكين لبيع الخضار والفاكهة ومستلزمات العوم..

أغمض عينيه مسترجعاً ذكرياته مع أقرانه؛ والرمال ملتصقة بأجسادهم وهم يتمرغون على الشط، بعد خروجهم من البحر والمياه تقطر منهم، يكومون الرمل فوقهم، يتظاهر بالنوم متابعا ما شيده أصدقاؤه من قصور، يزيح الرمل عنه مطيحاً بمدنهم، يهرب من ملاحقتهم له إلى البحر متفادياً أنقاض قصورهم، التي يقذفونه بها ولسع قناديل البحر.

أين هذه الرمال الآن؟! أتراها مستريحة في جوف البحر؟!

عندما اندمج في هندسة قصره الرملي وقت انشغال رفاقه بالعوم، خرج من بنائه مذعورا على عويل وصراخ :

غريق... غريق.

داس قصره باحثا عن رفاقه.

يفتح عينيه يجدها تنظر إليه بعينين قلقتين، تفشلان في أخذه من أفكاره فيعود إلى حواره:

كان أبي يبيع الأسماك ويشويها، لا أذكر وجهه لكني أتذكر آخر مرة رأيته ممدداً على بعد عدة أمتار من الدكان، قالوا طوحته الكهرباء التي سقط سلكها سهوا فوق فرن الشي.

يزيد قلقها مقترناً بالخوف، فقد شعرت بانقباض لتذكره أباه الميت، في البداية حدثتها نفسها بأن تذكره والده في هذا اليوم أمر عاديٌّ، لكنه الآن بعيدٌ عنها، ومن يجلس بجوارها ليس إلا صورته.

نزل من السيارة، أمسك بقبضتيه على الرمال (متى سيبتلعك البحر وتستقري في جوفه إلى جوار الرمال التي التصقت بوجه أبي؟)

أشار إلى العروس المتقوقعة في مكانها:

انظري إلى صائدات الرمال.. ألا تذكرك بالنسوة العاقدات أيديهن فوق صدورهن، ويستمر نزيف الرمال الناعمة من تحت أقدامنا. بعد ثلاثين صيفاً ضاعت ملامح الشاطئ ومعه أيامي الأولى، كيف نبني أدورا علوية وأدوارنا الأولى تتآكل؟!

أظلهما صمت تخللته نظراتها المشجعة على العودة إلى الحفل، ونبذ الأحزان، وتذكيره بأنه الليلة سيضع في إصبعها دبلة الخطوبة، وأن الأهل والأصدقاء ينتظرونهما.

عاد راجعا.. إنه أمام عجلة القيادة، ابتسمت في رضا. ربتت على كتفة مشجعة ومواسية، قفل راجعاً، اجتاز البحر، وعند ملتقى البحرين لف بالعربة.. تلاحق الهواء المنعش أخذه إلى المصيف قديما، حين يترك قميصه مفتوحاً، ويجري في وجه الهواء، فينتفخ القميص والهواء المتلاحق الضارب وجهه، وعظام صدره؛ يحمله؛ كأنه يطير مرتفعاً فوق البحر.

العروس تصرخ:

- احترس.. لها

تحاول فتح الباب المجاور لها، تسقط على الرمال المبتلة، بينما هو يجتاز الشط.

الأريكة

رجع بظهره ملامساً مسند أريكته، بعد نهار تسربت ساعاته بين دفتي دفتر الحضور والانصراف وساعات العمل الإضافية، مدد ساقيه، داعبت أنفه رائحة المنظف المغسولة به كسوته، أزاحها، تحسس ملمسها.. كم مر من وقت دون مداعبة وبرتها الناعمة.

مرر يده مستمتعا بملمسها، احتكت أنامله بنقر منحوت عنها الوبر، قفزت أصابعه تتفاداها، أغمض عينيه مستكيناً لعودة النعومة المحببة، تعثر بفتق بجوار القائم الخشبي، أخرجه من استرخائه، حاول تفاديه، غافلته يده، تجرأت أنامله عابثة بالفتق مستكشفة خباياه.

نهض في مواجهة القطع بعدما نهشته أصابعه، برزت قطعة إسفنج خفيفة مصفرة، تطفح عرقاً ولعاباً، بانت من تحتها عيدان قش غامقة مفتتة، تتناثر فوق ملابسه، ينفضها عنه، تتطاير وتعود إليه، يضطرب في دفاعه عن نفسه ضد غبار القش، رائحة العثة هيجت جيوبه الأنفية وأصابته بموجة عطس.

جادت قريحته بأن يثبت طرف القطيفة في القائم الخشبي بمسمار كبس، بعد إعادة الحشو ارتاح فلا أثر للفتق.

جذبها بعيدا عن الحائط الرطب، فاجأته رائحة العفن، طالعته رسوم هندسها تساقط الطلاء.

شرع النافذة لتجدد الهواء، وإن كانت تطل على منور، اتضحت البقع في الضوء الواهن المتسرب من بين الجهات الخلفية للبنايات، توالت دفقات الهواء برائحة

مواسير الصرف الطافحة، لكنها لا تخلو من هبات المسبك والتقلية، يعد البقع؛ مختبرا ذاكرته، طبعات روج كانت تكثر منه زوجته في الأيام الأولى للزواج، اختفى الآن، أو تضعه عند خروجها للعمل لإغاظة الزميلات، تلك الرتوش البنية لكوب شاي قذفها به عندما رفضت المساهمة براتبها كله في مصروف البيت، متحججة بأقساط جهازها التي تتحملها عن والدتها، البقعة الكبيرة المحتلة الوسط؛ حملق فيها مستدعياً الذكرى، ليلتها أخذ ابنه في حضنه بعد مشادة كلامية مع زوجته، سمع بها الجيران، طردها، وانتزع الولد من صدرها قائلا بصوت مجلجل:

لن تريه ثانية، تريدين قطع إجازتك وترك الولد لدادة الحضانة.

ردت بسرعة متقطعة بزفرات الغضب:

عفنت مثل الجدران التي تنز ملحاً، لا بد أن أتنفس هواء الشارع وإن كان مشبعاً بالعوادم الضارة.

راح في النوم بجوار الولد، استيقظ على صراخه وبلله، البقع الغامقة ملطخة اليد والأركان؛ هي من الموز الذي ضغطه الولد وأطعمه للأريكة، بينما هو يستعطف زوجته في التليفون لتأتي لإرضاع ابنهما.

تأففتْ من البقع، أشعل حماسها لبيعها وشراء أخرى، بدا عليه الارتياح لفكرة إضاعة مرتبها فيما ينفع البيت، اكتفت بأن حاكت كسوة أسدلتها عليها.

اهتدى إلى إرسالها لمنجد كنب في الشارع الجانبي القريب، نادى حمالا، عاينها، استدعى آخر معه بعد فصال على الأجر المدفوع مقدما، تعثر الحمالان عند الخروج بها من باب البيت، سمع طقطقتها، فقد الأمل في إصلاحها، سار وراءهما تأذى من منظرها المقرح، ثقل بخطوته حتى لا يعرف الجيران أنه صاحبها.

أفرغ المنجد محتوياتها، أصلح الهيكل الخشبي، شرد وهو يتابعه، رآها عادت كأول عهدها بوبر ناعم زاهية، والجدار لامع تفوح منه رائحة الطلاء، طفله يدور حولها بدراجته، زوجته تقدم له عصير الجوافة، وقد عادت تضع أصباغ التجميل وأزاحت غطاء رأسها، فبدا شعرها المصبوغ نكاية في زميلتها المتزوجة حديثا؛ متموجاً براقاً، أفاق على ورقة الحساب، شرد ثانية؛ تلك المرة في كيفية إقناع زوجته بدفع التكاليف.

السترة

غسلت سترتي بالطريقة المعتادة، طالعني أثر حبل الغسيل، وعلامة المشابك مدموغة في النسيج الخارجي، فضلا عن تهدل البطانة، شهقت للمفاجأة كأن هناك من سيؤنبني على فعلتي.

أعملت المقص والإبرة والمكواة، أتذكر تحملها الأنواء السابقة كتذكري محاسن الموتى، اختارتها أمي واستبعدها أبي وهو يدفع الحساب، أعادتها أمي مضحية بفستان جديد تحضر به حفل زفافي.

ارتديت السترة عند خروجي للعمل، رمقني زوجي بتأفف كالذي يرمقني به وأنا مكفنة باللحاف.

المنعطف المؤدي إلى الشارع العمومي أغرقته الأمطار، وبالوعات الصرف تفور، سلكت الأزقة الخلفية متفادية ما تلفظه الأسطح من مياه متسخة، في زاوية بين بيتين ينفرد كلب بقرمشة إوزة من جناحها، عندما شعر بخطواتي ابتعد بها متدلية بين أسنانه، اقشعر بدني، أغمضت عيني، سددت أذني وتجاوزته.

التحقتُ بالواقفين تحت البلكونات ومظلات المحلات، منتظرين توقف سماء الدنيا عن النواح، ضغطت سترتي أكثر مدارية بحقيبتي تمزقاً في الجنب اكتشفته للتو.

بدت البيوت مغسولة نظيفة، صنع المطر بركاً متفرقة وخاصة التي نحتتها المزاريب، من يملك الآن مركباً يعومه في البركة الأكبر تحت الرصيف!!

تراءت لي تلك المراكب المشيدة من صمتي، يتكلم وأسمع، هيأت نفسي لسماعه، شفتاه تتحركان، يطرق صوته سمعي، ترتسم على وجهه تعبيرات الردود، أقرأ

الامتعاض والرفض والتمسك بموقفه، لكني لا أعرف ضد من يتمسك بموقفه؟ يتكلم وأسمع على هذا المنوال، هيأت حياتي لتسير المراكب وإن كانت تسير في مياه ضحلة.

أهز رأسي محاولة إعادتي إلى مكاني تحت البلكونة أمام المقهى والأبخرة المنبعثة من الأكواب فوق المناضد، وصبي القهوجي يراوح للفحم، تحت مظلة محل مغلق يقف شاب نحيف، يتبادل مع قاصديه دس لفائف في الأيدي، يتبادل الشباب ممن أقف بينهم النظرات والهمهمة.

يتوهج الفحم في شيشة إسكافي الحي، الذي ركن الأحذية الناقعة، ليأخذ الاصطباحة من فطور وشاي، ضارباً باستعجال الزبائن عرض الحائط، فما كان منهم إلا أن تركوه عندما أزاح بائع الكرنب المشمع عن بضاعته، اشرأبت الأعناق متخيلة أطباق المحشو يتصاعد منها البخار.

خفت الأمطار، وجاء دور الغسيل المنشور بالبلكونة ليواصل التنقيط، ضغطت السترة أكثر.

السير تحت المطر عاد بي إلى ذكريات الطفولة الضبابية، أسير ممسكة يد بنت عمتي نعدو بضفائر مبتلة، نقهقه، نستبق إلى باب البيت العتيق، نجاهد في دفعه بأكفنا الصغيرة الناعمة، نرفع صوتينا الرفيعين: أمي.. عمتي، ينفتح الباب عن سواعدهن البيضاوات، نلوذ بحضنيهما فرحتين.

رذاذ ناعم يلامس وجهي، تتفتح النفس مبتهجة، ألعق قطرات منثورة على شفتي، يشتد المطر، أفرد المظلة، تقلبها الريح، أغلقها متشبثة بالسترة موسعة الخطوة.

تخلل الماء شعري، تحمي السترة الجزء العلوي من جسدي، وتنقط على الجزء السفلي، أشعر بالمياه تنزلق من ركبتي على ساقي وجوربي، وصلت العمل مغرقة بالمياه، كل همي خلع السترة.

الصخرة

فتحت كفك مبتسماً، عيناك الهادئتان تومضان فرحاً، ترددت واحمرت وجنتاي بينما شفتاي تنفرجان مكسبتان وجهي نضارة وعذوبة، لا أدرى أي قوة حركت يدي لتندس في كفك الممدودة.

عدونا هائمين إلى البحر، درنا حول صخرة أسميتها الصخرة المنسية، شعرت بها بعيدة مهجورة؛ قلت لك:

ماذا تسميها؟

نتسلقها أولا

كنا قزمين بجوارها، تمنحها الطحالب ملمساً لزجاً ولوناً أخضر مبرقشاً في أسودها الباهت، ليلاً ونهاراً يلطمها البحر، في الصيف يداعب أسفلها تاركا باقتيها تتشمس.

حاولنا تسلقها، قدمتني مختارا صعودك في إثري، يدك في ظهري تدفعني، وبلهجة آمرة تقول:

لا تنظري للخلف.

نتوءات الصخرة تؤلمني، تنغز فخذي، رءوس أصابع قدمي تحرقني، الطحالب اللزجة تلتصق بباطن كفي، أحكهما في نتوء جاف قالبةً شفتي قرفا، تحيط يداك خصري؛ آخر ما أذكره منهما لمسات أناملك لساقي، واصلت الصعود مع حذري وخوفي من النظر إلى الخلف قلت:

أين أنت؟

وصلت للقمة فرحة، لم أجدك في إثري كما توهمت، بعد برهة اتزنت، مسحت بعيني جسد الصخرة، رأيتك كما كنت، الهواء يرفع فستاني، ضبطت عينيك تغرزان في منظري، لملمت طرف ثوبي وضغطت عليه بركبتي.

باطن قدمي ملتهب، وبين لحظة وأخرى سينبثق الدم من بين الأصابع والكعبين، بحذر جلست وتحسست مكاني وتمددت، الهواء يملأ رئتي ورذاذ الموج يتفتت وينتشر ، تصلني نتفه، أتابع فيها تحلل الضوء، اعتدلت في جلستي، الزبد الأبيض يتفتت على قدمي، تمنيت أن تكون بجواري وتسمع وشوشة الموج، ظللت بكفي عيني ووجهي في هالة الضوء أناديك.

أغراني المد، ألقيت بأوهام انتظارك للبحر، تلقفني الموج بسياطه، شهقت جزعا، يلسع ملحه عيني، أشعر أنى سأستنشق ماءً، أستنجد بذراعي، تبرز لي أصوات:

استرخي.. ما أحلى العوم.

بين هنيهة وأخرى أرفع رأسي باحثة عن شط.

لحظة الوصول ارتعشت أوصالي، نزع البحر عني دفئه، الهواء الرطب يرشقني بملابسي القصيرة المبتلة، أتقوقع في جلدي الناعم، يلتصق الرمل بفستاني وساقي وقدمي.

اهتديت إلى ضياء بعيد، سرت إليه بجلد مقشعر، قابلني.. تصنع الدعابة وتصنعت التماسك، بصقت خوفي على رمال غسلها البحر في مده.

سرت وحدي، تتقاسمني فتافيت المنى في معاودة ندائه، وهمس يتردد في نفسي:

- لا تبالي.

العرس

توافد الأقارب من مساكنهم الهادئة، فحين أغلقوا أبواب منازلهم وراءهم تركوا السكون يرفل مستمتعا بفسحة الزمان والمكان، يتدفق الصمت مزيحاً من ذاكرة الجدران جلبة الضحك والبكاء، يتفقد الأواني المستكينة في دواليبها، حتى ما كان منها مغرقاً بالمياه ينتظر تنظيفه مكتئبا؛ عليه الآن أن ينعم بهدنة، الدمى الممزقة تراخت مكومة في كراتين محشورة وراء الكنب، الصمت ملك ورع يبارك رعاياه، حتى العناكب التي تواصل غزلها، تلفلف بيوتها الواهنة بين قطع الأثاث.

فرحت بالمهمة التي أوكلتها إلي سلفتي أم العريس، فستتيح لي فرصة الابتعاد عن ضجيج الأقارب، نميمة الكبار المصحوبة بالفضول المحموم والتوقعات المسلم بها غير نزق المراهقين وهوس الأطفال.

المهمة؛ عزومة قريبة لنا من بعيد، كانت من صديقات حماتي وانقطعت عنا بعد موتها، تذكرتها سلفتى قبل العرس بيومين، قالت :

فرصة؛ نصل رحمنا وتشاركنا فرحتنا.

***

أعرف العمارة التي تقيم فيها، لكني لم أدخلها من قبل، المدخل رخامي واسع، شبابيك السلم تبث هواء رطبا، أي صداقة نشأت بين حماتي وتلك القريبة، فبيتنا بطوابقه لا يكفى ثمنا لشقة واحدة هنا، أذكر المرة الوحيدة التي رأيتها فيها، كانت يوم عرسي، ملامحها كابتسامتها هادئة، هدوؤها وقور، أنيق، يسبقها عطرها المميز

المجهول لدينا، أهم ما أذكره شنطة يدها الشمواه حين فتحتها ودست في يد حماتي النقود، لا بد أن سلفتي تمني نفسها بلحظة مشابهة.

ضغطت الجرس مسوية هندامي، ماسحة حذائي في باطن ساقي، انفتحت درفة الباب لأجد أمامي وجهها، وقد تكاثرت عليه الغضون حول الفم والذقن والعينين، شعرتُ بعينيها تنفذان إلى عظامي، تراجعت تجاعيدها أمام بريق عينيها ورنة الفرحة في صوتها، هتفت في نفسي:

تذكرتني.

صافحتني، أدخل أول غرفة بعد الاستقبال المبهرج بالستائر والإضاءة والموشى باللوحات التي لا خبرة لدي لمعرفتها، أصلية كانت أم مزيفة.

جلست قبالتها وحذائي غائص في وبر السجادة، وددت لو خلعته وتخلل الوبر الناعم أصابع قدمي، بدا استفهام على وجهها، حضرت الإجابة فلا بد أن سؤالها سيكون عن الأسرة وأحوالنا بعد حماتي، انطلق سؤالها:

أترين هذه المنضدة ذات المفرش الكرشيه؟

هززت رأسي مبتلعة دهشتي، فالمنضدة واضحة أمام عيني، أنتظرها تكمل، تتمهل في نطق الكلمات، كأن هناك من يمليها عليها، وهي بدورها ترويها لي، أو كأنها تضغط على أضراسها حتى لا يفاجئها طقم أسنانها، ويتخلى عن موقعه فوق اللثة:

فوق هذه المنضدة المهملة الآن، ولا يجملها غير فازة بلا ورود، كنت أوزع أوراق الكوتشينة على الأصدقاء، أخلط الورق وأعيد توزيعه، كل مرة أتبين من يغش، مع تكرار الأدوار، عرفت الغشاشين.

ابتسمت كأني طرف في الصراع، ارتعشت شفتها السفلى:

خجلت من مواجهتهم.

نظرت إليها باستغراب، رفعت كتفيها:

لم تواتني الشجاعة لطردهم، تخلف الطيبون واحدا إثر الآخر.

قلت في نفسي لا بد أن حماتي كانت من الطيبين، أكملت:

لمحت بمعرفتي غشهم، ضحكوا مفسرين الأمر مزحة، امتنعت عن اللعب إعراباً عن استيائي وعدم ترحيبي بهم، تقدموا، أخذوا مكاني، أداروا اللعب كما يحلو لهم.

كاد ينطلق سؤالي الذي لمحته في عيني، أين كنت؟ تنهدت:

ارتكنت بمرفقي إلى البوفيه، أتابع تخليهم عن قواعد اللعبة، توغلوا في الغش والمقامرة، أنتبه على الألم والدماء تنبت من أظافري التي قضمتها أثناء صمتي، حركتني صرخة من حلق أوشك على مفارقة الحياة، دبت في أوصالي القوة، طردتهم شر طردة.

تهرب عيناها مني، تعبث يداها بجلبابها، رفعت رأسها، تقاوم الدموع الملحة، خرج صوتها مرتبكا بتأتأة ذكرتني بتجاعيدها:

-هددوني باتهامي بما اقترفوه، من يومها ليس لي هنا غير الترابيزة الصغيرة وعليها عدة القهوة، أتريدين فنجانا؟ مضبوطا؟

لقهوتها رائحة الحبهان، ترتشفها بتلذذ، قاطعتها:

يأتون إلى الآن؟

ابتسمت على اعتبار أني أمدح قهوتها وكأنها لا تعرف عمن أحدثها، ماتت على لساني الجملة التي حملتني إياها سلفتي (شرفينا عندنا عرس).

***

أهرب من زحام البيت إلى العمل، أمام الأقارب أضطر إلى عدم مجادلة زوجي في أوامره، ليس تمثيلا مني، بل تفاديا لبعثرة كرامتي أمامهم، وقد استغل هذا، أخرج ملابسه الداخلية لأكويها إلى جانب ملابس الخروج التي أكويها من أول زواجي، أمتثل لطلباته الزائدة معلقة ابتسامة بلهاء على شفتي وفي بالي ألعن نفسي الخائفة من الإهانة.

في عودتي من العمل صاحبني ظلي ممددا بزاوية على يميني فوق الرصيف، أقترب من حافة الرصيف ينسكب ظلي على الإسفلت، أفسح له، أخشى أن ينفلت مني وتدهسه السيارات.

ليلة العرس كانت أصوات الأقارب قد بحت من نقل الكلام بين أدوار بيتنا، محرك المياه لم يسكن لحظة، يعدون أنفسهم لارتداء الملابس المقتناة للزفة، لم يتركوا شيئا على التسريحة لم يستعملوه صغارا وكبارا، تراصوا في الصفوف الأمامية للمسرح المزين بالكوشة.

وصل العروسان وسط جلبة الموسيقي، حين أخذت العروس موقعها في الكوشة ارتقت أختاها المسرح، لمساعدتها في رفع الطرحة فوق الورود، فبدا وجه العروس القلب في زهرة، فردتا ذيل الفستان، كلما أنزل من جانب ارتفع من الآخر، كاشفا عن ساقين لامعتين.

توافد المعازيم، لم تعلق سلفتي عن عدم حضور القريبة التي عزمتها، الكثيرات من المعارف قبلنني، لم ألقهن من زمن، بعدما قبلنني وقفن حائرات.. ماذا يفعلن لتأكيد وجودهن، ظلت شفتاي منفرجتين على الابتسام كي يرضى عني الجميع.

أوقفت الفرقة العروسين، خفضت الإضاءة ليرقصا، دارا على المسرح، العريس ينظر إلى حذائه، يخشى أن يدهس فستان العروس، العروس تخطو خفيفة، لا تعلم إلى أين تأخذها خطواتها بالحذاء الأبيض وذيل الفستان المتأرجح والطرحة الزاحفة.

انطفأ نور العرس، اجتهد عمال الفراشة في كبس الكراسي، بعضها فوق بعض، وتفكيك الكوشة، ارتبك الأقارب، أين ينامون؟!

انتبهوا الآن بعد ثلاثة أيام إلى أن البيت لا يسعهم، تسللت من بينهم، دخلت شقتي، أغلقت بابي، ساعتها أدركت أن السكون المسيطر على منازلهم، يلملم نفسه عائدا إلينا.

خروج

سار في درب معبد، مهدته خطى السائرين من قبله، عندما قارب نهايته تأرجحت ذراعاه كمن يعلن عن خلو يديه.. تململ.. استدار.. أدرك أنه لم يضف ولو لمسة، كما جاء يخرج دون ذكرى.

لا بد أنه سيعلم في درب آخر، هذا ما قاله لنفسه حين ارتكن إلى حائط مزخرف ومصبوغ بحمرة الشفق.

ليس لديه وقت، تنسكب بداخله تساؤلات:

أيكون العمر ضاع دون جدوى؟

التصفيق والتهانئ من الزملاء والمترددين على الدرب.. أكانوا يجاملون؟

يعتدل في وقفته، أجراس تنبيه تندلع دقا على طبلتي أذنيه، يدور حول نفسه، يوزع النظرات في عمق الممرات والانحناءات، وخلف المكاتب، والمناظر الطبيعية المزينة للجدران يشعر بها ستائر؛ إن رفعت ستعلن عن خلفيات أخرى.

فوق حجر أملس مشذب الحواف جلس، يمرر عليه يده:

لماذا شذب جماله في انثناءاته.

كثيرا ما رآه؛ لكنها المرة الأولى التي يلمسه ويجلس عليه، بدا أمامه الدرب بكل زينته ديكورا قد يتغير... وهو... تومض شرارات غامضة بداخله، تتسرب إليه برودة الحجر.

كلما نظر إلى انحناءات الدرب، شعر بها زوائد تتحرك تجاهه.. كل ما في المكان ينقبض ويتمدد، دفع إلى ممر متفرع من الدرب.

تلقت الأرض المتربة خطواته الأولى، ما لبث أن بللته زخات مطر .. سرعان ما بزغت الشمس الواهنة من خلف الغمام، الذي تراجع أمام قوس قزح متباه بألوانه.

لقاء

في ارتباك؛ تفتح الأدراج وتغلقها بحثا عن شيء تقدمه، هناك أشياء لكنها تحتاج تجهيزاً، ابتدرها بصوت هادئ وابتسامة خجلة:

لا عليك فغاية الكرم مقابلة زوجك.

غطت بطرحتها جانب وجهها، ابتلعت غصة شنجت حلقها، خرج صوتها منقوعا بالحسرة:

لا زوج لي.

فتح عينيه في دهشة على خيبة الأمل، في لقاء ظل يمني نفسه به أعواما، تظاهرت بالجمود بينما الغليان في عروقها النافرة، أخرج من حقيبته جواز سفره، فتحه أمام عينيها، بعتاب أشار إلى صورته:

ألا تعرفي صورة من؟!

خرجت من جمودها، تناولت الجواز، قلبت صفحاته، دققت في الصورة، حاول التقاط نظرتها التي تجاوزته إلى فضاء بعيدٍ، ترفع كتفيها:

يشبه من كان زوجي.

حملق فيها بعينين مشربتين بحمرة، فتحت درجا، أخرجت صورة قدمتها له

هذا هو، عيناه صافيتان، اليوم أرى المكر فيهما واضحاً، لم أعرفه في حينه، عيناه النهمتان رأيتهما عيني عاشق.

رمقها في حنو، جذب ألبوم الصور، فردها على البساط الرمادي، أسند ظهره إلى الحائط، عبرت به الصور إلى أماكن التقاطها.

تطلع إليها:

لم تتغيري.. ما زلت أراك ترتدين اللون الزهري، وما زال شعرك مقصوصاً، فعبثا تحاولين إخفاءه تحت طرحتك.. بشرتك الخمرية، ألا تذكرين مقولتي: اللون الزهري أكثر جمالا عليك؟! أعرف أنى ظلمتك، قناع الجمود والإنكار تعذبينني به، أعرف أنك عانيت.

ازدردت ريقها، ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهها:

منذ متى والإحساس بمعاناتي يعذبك؟!

أسرع إليها يطوقها، نفضت يديه عنها، رفعت صوتها:

من عام، عامين، تسعة أعوام!!

البلاد البعيدة سرقتني.

فتحت جواز سفره على صفحة الزوجة:

جميلة، سرقتك! ارتفعت نبرة صوتها في تهكم:

سرقتك بوداعتها ورقتها، وأنا هنا أتحمل وخز النظرات، وتأنيب الأهل على اختياري الذي دافعت عنه باستماتة.

جذبها من ذراعها، أجلسها جواره على البساط الرمادي الذي نحته التنظيف، وضع يده على كتفها:

آخر ما توقعته قسوتك.

عيناها مصوبتان إلى لوحة تتوسط الحائط قبالتها، رسمها ذات يوم بالفحم لعينين متطلعتين وطائر يفرد جناحيه وسحب تلف الخلفية، شعر باستكانتها، استرسل في سرد قصته، رمق جسدها الدافئ، انفعل في تقديم تفاصيل رحلته، ضغطها إليه، مرر يده على كتفها وذراعها، لم يبق إلا عينيها؛ إن استجابتا لعينيه، سيهنئ نفسه بعودتها إليه.

رفعت أصابعه ذقنها، أزاحت يده، انسلت من تحت ذراعه، رفعت اللوحة عن الحائط، كفأتها فوق المنضدة، استدارت إليه:

منظر لا يتضح فيه ميقات، كل ما قلت لا يمنعك من الاتصال بي، رؤيتي لك اليوم معافىً وأفضل مما كنت تسعدني، لكن لا تداويني، تلعثمت، تدحرجت الدموع على وجنتيها ساخنة:

بعد سفرك، لم يبق لي غير الانتظار، زميلات العمل يسردن حكايتي للمستجدات، أحيانا مشفقات وكثيرا محذرات من وهم، رسمنه بنظرات أزواجهن لامرأة مهجورة.

وقف في مواجهتها، تحركت شفتاه، أوقفته أصابعها، تناولت من درج الصور ورقة، فردتها أمامه بحكم طلاقها منه بعد غياب سنوات، كأن صعقا كهربيا أصابه، أهذه التي تحدى بأنها -إن غاب عنها العمر - لن تكون إلا له:

من أجل من؟

ضحكت:

رفعت القضية من أجل حريتي، وبالتحديد من أجل لحظتي هذه، في البلاد البعيدة بعدما أكلت رطوبة الأرض جنبيك، وقعت في العشق، تزوجت وأنجبت.

في طريقه للباب:

فكري أخذت نصيبك من العذاب، جاء دورك لتعيشي.

فتحت عينيها دفعة واحدة، دون مقاومة الجفون والدموع الجافة على أطراف الرموش.. صدى صوته تجاوز الحلم ليتبعها في اليقظة:

جاء دورك لتعيشي.

نزعت رأسها عن الوسادة المبللة بلعابها، التقطت كوب ماء مهمل نسيته من عدة أيام بجوار الفراش، تراجع عطشها، فعلى الضوء المتسرب من خصاص النافذة وضح التوتر السطحي للماء المغبش، بندف الغبار والأتربة، وهناك ناموسة تتسلق الجدار الزجاجي، عافته نفسها، كلما تذكرت عطشها، تخيلت جرجرة ساقيها وسكب الكوب وغسله وملأه، وكأنها اتخذت قرارا، فتحت الثلاجة، أخرجت زجاجة، أزاحت غطاءها، رفعتها إلى فمها، بلا مبالاة وضعتها فوق الثلاجة والماء يقطر من ذقنها وأنفاسها لاهثة.

طوحت الوسائد وراء ظهرها، مريح الإحساس بأن هناك ما يسند الظهر، عاد الحلم يطرح على ذاكرتها، نفضت طولها واقفة فوق السرير كأنه مسرح، وأثاث الغرفة جمهور، بصوت عذب تحكي الحلم، في النهاية وعدتهم بأن تطوي الحلم عدة طيات، محافظة على أطرافه من الثني ودسه في درج التمني، لوحت بيديها ستارة... تصفيق... انحنت توزع ابتسامتها بالتساوي، بدا الأثاث وكأنه يرد على ابتسامتها بضحكة بلهاء.

شرعت النافذة، تبدل الصدى بصوصوة فزعة، جذبت الضلفة، انكشف لعينيها عش من قش، في تجويف بالحائط، قريب من نافذتها، هدأت الصوصوة، أمعنت النظر تأكدا من أنها لم تصبه بدفعتها، لم يمكنها موقعها من معرفة ما بالعش، أومأت برأسها تعبيراً عن أسفها للإزعاج، وترحيبا بانضمامه لملهاتها.

البعاد

-1-

المحطة 1

تحاملت على ساقين مشدودتين؛ والقطار ينزلق من بين الأيدي القابضة على العمود المعدني المغروز في باب القطار، كانت يده تحاول التشبث في محاولة مضنية لحفظ التوازن.

تعرف أن عينيه العسليتين لم تجدا وقتاً لتراقباها، عندما رفع رأسه في اتجاهها مرق القطار مخلفا رصيف المحطة بما يحمله من أيدٍ مودعة، وعيون دامعة، وجلبة الباعة.

ابتعد القطار بضجيجه والبشر المحشورين في أبوابه، خلت المقاعد الرخامية، ساد هدوء حذر، غادرت المحطة والأنين ينبعث من أقبية ذاتها يردد:

لن تريه ثانيةً.

المحطة 2

استراحت على أقرب مقعد، وقعت عيناها على جوربيها المتهدلين، عدلتهما بخفة متلفتة حولها، هبت ريح متربة، أعقبتها أمطار، لمعت تحتها القضبان الحديدية، تسري برودة المقعد الرخامي في ظهرها، بينما منحتها خصلات شعرها المنثورة فوق الجبين والأذنين دفئاً واحمراراً لخديها.

تهامس الباعة فيما بينهم، تتابعوا في عرض بضائعهم عليها، من مناديل وحلوى ومياه معدنية، تهز رأسها بالنفي، يبتعدون متهامسين.

اكتظت المحطة، وصل القطار، لا تدرى من أين جاء، من مخزن القطارات أو من محطة أخرى، مشرع الأبواب، ظل يلتقم، تحرك، ارتفعت صيحات المودعين، نشطت بائعة المناديل.

توالت القطارات، تظهر، تتحرك في اتجاه واحد، المودعون ينهنهون، ترتعش ابتسامة في ركن فم بائعة المناديل؛ وبطريقة تمثيلية تحاول كبحها وهي تفك الكيس عن بضاعتها الرائجة.

-2-

لوعة

البعاد المر جعلها تهذى في أحلامها بندائه

انفض عن أذنيك أصوات بائعي الأسماك، وجلبة احتكاك صناديقهم بالأرصفة المبلطة، المثقوبة بالبالوعات.

حاذر طرطشة المياه المنثورة من دلائهم؛ المستقرة على حوافها وقيعانها قشور تخلت عنها الأسماك.

لا تهب نصالهم اللامعة بين أصابعهم المدربة على إفراغ جوف البوري من البطارخ، ليباع بثمن بخس، ويقبل الزبائن.

شق طريقك لتلقاني بجوار قاربك المكفوء، يلحس حوافه الطين المتراكم من

ذكرى الفيضان، وتمتص ألواحه قطرات الندى المتسربة من ضباب ليالي الشرد.

تشقق خشبه بين صيف وشتاء، في الربيع أزهرت في حناياه الرمادية زهوراً صفراء وأخرى بيضاء، زجت بها رياح الخماسين تحت الأرصفة، وماتت دهساً بالنعال.

في الخريف تختبئ تحته السحالي، بينما تغطيه أوراق الشجر الصفراء، تظنها تحميه، إنها لم تمنع مياه الأمطار من الالتحام بالطين، ليصبح مظلة لبركة آسنة.

عندما حمصته شمس الفول، أمر صاحب فرن السمك صبيه بسلت ألواحه واحدا وراء الآخر، مستمتعا بطقطقتها في النار، وبرائحة نضج البطاطا والفول السوداني على الصهد.

تسدد عيون الأقارب والجيران، نظرات فعالة في حبك دوامة المرارة، حين تراقبها وقت العصارى، وهي في طريقها إلى شجرة ذقن الباشا، بجذعها الضخم ورائحتها الفواحة، تفرش منديلا، تجلس عليه، تلملم في حجرها الزهر المتساقط، تغمض عليه كفيها، تداعب بزهرته الناعمة خديها.

وقفت قبالة اسميهما المحفورين، ابتسمت، استلت مسمارا ومطرقة، لا تزيد عن كونها زلطة، تتطاير ذرات اللحاء أمام سن المسمار، تعطس، تدمع عيناها، وتواصل الدق.

هذيان

محاطة بالمياه، دوامات وهدير، أنشب أظافري في تجاويف صخرية لزجة الملمس، عطنة الرائحة، تتشقق أناملي وتدمي، أتعثر في أحجار مهشمة، توصم جسدي المنهك بخر بشات وكدمات.

أصل إلى الرمال الخشنة، أستلقي في إجهاد، يسلمني إلى النوم، فقد أصبحت في مأمن من جذب الموج الذي ينأى بي عن اليابسة.

أيقظني نور الصبح المنفلت من رمادية السحر، ارتعشت جفوني متمسكة بحلاوة النوم، أتقلب على الرمال، تتحرك عظامي في دغدغة، تنفض الكسل عن جسدي المتعب، أعتدل في جلستي، رئتاي في قمة اتساعهما احتفالاً بالهواء المحمل باليود.

الدنيا في عيني لوحة فنية لا تقدر بثمن، لسماء تلتقي بالبحر عند خط الأفق، زبد يفور مداهما الصخر، موج يهدر ويطرطشني ليذكرني بأني لست بعيدة عنه.

أنفض عن شعري ما علق به من رمل وعشب، يعود منسدلاً على كتفي في خصلات مموجة، أفحص ثوبي، خامته جيدة، ممزق من الذيل، كاشف عن ساقين ملونتين بكدمات ودماء جافة وأعشاب بحر.

أدبُّ بقدمي الحافيتين على الأرض، تتطاير هبات من الرمال، أقف على أرض ثابتة!! إذن اهدئي يا أنا، أنا!! من أنا؟!

أتحسس جسدي اليافع، أضع كفي أمام عيني، أدرك الأصابع المجهدة، أميز بطن الكف وظهرها، ولون شعري البني الغامق، لكن لا أسجل ذكرى لصورتي في المرآة، أمرر كفي على الوجنتين الناعمتين، كم مرة صبغتكما؟! الأنف المدبب،

أكان شامخا، أم دس في التراب؟! الشفتان المنفرجتان، أمتأملتان، مندهشتان، أم تطلقان تأوهاً من بعد صمت؟! أجهد نفسي في التذكر، لا أصل إلى جواب، كأني أحاول تذكر أحلامي جنينا؛ هل أردت التخلص من الجدار اللحمي لبطن أمي، أم تمسكت بالمشيمة والبقاء الآمن؟ أكانت أمي تتأمل بطنها كل يوم في حنان؛ أم تخجل من نموي وتتوارى عن الناس؟! كيف أوجدتني الحياة هنا؟!

أجرف الرمال بيدي، أنثرها، أدور حول نفسي في سحابة رملية، أنتبه إلى القواقع وهياكل الرخويات التي أطبقت شقيها على الرمل، أخرُّ على ركبتي، أربت على التربة تحية للكائنات المقبورة.

ترفرف طيور بيضاء متنقلة بين الصخر والماء، تومض أجنحتها لذهني بأني رأيتها قبل الآن، تحوم حولي، تشعرني أني سمكة، وعلي أن أهيئ نفسي لأكون وجبة، وعزائي أثناء التهامي، أنها ليست أية سمكة تبذل من أجلها الأفكار، فلا بد أني كنت واضحة العنفوان، وأجمد أرصدة خيالاتي لما كنت عليه قبل الانزلاق.

يتدافعون نحوي وفي أذهانهم تلك اللحظة التاريخية، التي يقضم فيها المنقار وسط السمكة المقوسة.

نسيت إجهادي، ألقمتهم أحجارا وحصى، كما تفرد السمكة زعانفها لتذكرهم بأن لديها أشواكاً، عندما أدركوا أني غير صالحة للأكل، استقروا فوق الصخور ممنين أنفسهم بشوط آخر بعد التقاط الأنفاس.

***

دوار يقعدني، أنكفئ على نفسي، أسند رأسي إلى ركبتي، تضيء لعيني صورة امرأة، تقف خلف زجاج النافذة، تراقب الضباب المتخاذل أمام النور، أحزمة الضوء تنعكس على صفحة النهر، فيبدو رصاصياً مصقولاً. تصفق طيور بيضاء بأجنحتها،

حائمة فوق أقفاص السمك المزروعة بعرض النهر على شكل مربعات، غاطسة في المياه، يطفو فوقها شباك الغزل، بالقرب من كل مربع كشك خشبي، ينبعث من شباكه دخان الحارس، يتأرجح قارب مربوط إلى الكشك، تتراص الطيور البيضاء على حواف الصندوق؛ متربصة لأي سمكة تسول لها نفسها فكرة التمتع بدفء السطح اللامع، يتمدد كلب في عتبة الكشك، من آن لآخر يطلق عقيرته، فتتراجع الطيور وسرعان ما تحط.

***

أفيق على دفء الشمس الذي تحول لسعا، يكوى جلدي ويصبغه باللون النحاسي، أقفز فوق الرمال الساخنة، ألمح خصاً، أدور حوله متصنتة، لا صوت إلا وشوشة زعفه للريح.

سبقني نصفي العلوي إليه، الهواء يدخله من ناحية ليخرج من الأخرى، جريده مغروز بإحكام، متباعد من أسفل؛ متعانق في أعلاه، ألامسه من الداخل كأني أستنطق خباياه، أشعر أنه سينطبق ويعصرني بين أعواده الخضراء.

رائحة البلح الأخضر الكامنة في الجريد، تأخذني في موجات أثيرية إلى بقع الضوء المتناثرة بين النخل السامق، تظلل الطفلة بكفها عينيها الفضوليتين، متابعة طالع النخل وهو يطأ الجسد الشامخ.

قدماه المفرطحتان تتشبثان بالنتوءات، يحرك مطلعه المصنوع من الحبال، يحيط به ظهره ويطوق النخلة، بحركة مدروسة يضمها إلى صدره ويحرك المطلع من الناحية الأخرى لأعلى، مع تسلق قدميه إلى نتوء آخر.

إن دافعت النخلة عن نفسها وأبرزت أشواكها الشرسة، تحمّل الوخز متوعدا بجز شماريخها بلا رحمة، مع وابل من السباب للمهنة، وما خلفته من أشواك ما زالت تحت جلده.

يستقبل الرجال البلح المتساقط برصه في أقفاص، وحمله على عربات تشق طريقها في الغيط، وسط نهيق الحمير، التي تئن من صعوبة الأحمال في الرمل الناعم.

تتسابق الطفلة مع فتيات من عمرها وأكبر، في التقاط البلح المبعثر والمدسوس في الرمل، يجمعنه في أسبتة وأوعية، يرفعن عليها وعاءها فوق لفة قش، بأمشاط أقدامهن الحافية ينثرن الرمل الناعم، يسرن في موجة من الغبار والثرثرة بأصواتهن الرفيعة وضحكاتهن البريئة، يتجاورن مقرفصات على رصيف محطة القطار، تتداخل الصور لوجوه الغرباء وزحام الباعة ورائحة العرق، ورنة البرايز التي تعصر عليها المنديل.

يشتري البنات طلبات الأمهات من علف الدواجن وأقراص الطعمية الساخنة، يخلفن سوق المدينة وراءهن؛ متجهات إلى بيوتهن الواطئة، المتناثرة في أزقة قبل الغيط.

العرق والغبار يصبغ بشرتهن بلون ترابي، قبل البيوت أعشاش القفاصة، يشير لهن رجل ملثم، تزداد ضربات قلوبهن الصغيرة، عندما يبصرن منظره الغريب، يتصايحن في فزع مسرعات.

يلقين على بعضهن تهمة النظر إليه بإمعان، يتكهن بأنه فلان أو فلان، يتوعدن بإخبار أسرهن، ليتربصوا به، ويضربونه علقة موت، قبل افتراقهن يتفقن على عدم التحدث عن الملثم، حتى لا يُمنعن من الخروج.

***

يجفف الهواء البارد المبلل برذاذ البحر عرقي، ويعود بي بين زعف الخص، الذي يبدو طازجا، وإن كان قديماً تركته الشمس مصفراً ممصوصاً، يشبه أعشاش القفاصة، وإن كان بدون أدواتها الحادة، وبدون حبال الليف، نعم تلك الحبال التي يفتلها العجائز ساعة العصارى في جلستهم خارج الأعشاش والبيوت.

أضغط رأسي بين كفيّ، كأني أقاوم تناثره، أخرج من الخص، أتلفت حولي داهسة ظلي المتواري تحت قدمي، أشعر أني في بئر مظلمة، أحاول الخروج منها؛ فتخذلني قواي.

عثرة

فركت قدمي، اختل توازني لخطوات، بداخلي إصرار على عدم ارتطامي بحرف الرصيف أو الإسفلت، صندلي تمزق.

لملمت نفسي، صوتي هناك ينطلق بآهة مذعورة، لا أدرى من أين انبعث، تسرب من بين أسناني وشفتي دون إشارة مني، أمسموح وقت الخطر؛ لأي عضو أن يعمل دون أوامر؟!

بكيت بمرارة، بطبيعتي بكاءة، بفعل الوراثة، وجذوري الممتدة من جدتي لأبي، فقد كانت نواحة، لم تكن مهنتها، تسترزق منها، بل موهبتها، رأيتها في طفولتي، تطلق عقيرتها بالصوت، كلما مرت جنازة من شارعنا، وأحيانا تبدأ بالنواح عندما تسمع الناعي يسرد أقارب المتوفى، سألتها:

تعرفين الميت؟

لا.. لكن لازم أعمل له التحية.

حاولت الوقوف على قدمي، آلمتني، أنط على قدم واحدة، لا أبالي بارتجاج جسدي، ولا بنظرات الاشتهاء أو الاشمئزاز، هدفي الوصول إلى الحائط والارتكان إليه، الآن تنبهت لأهمية الحوائط.

تفحصتني بعينين مرتابتين؛ فتاة من خلال زجاج المحل، الذي ارتكنت إلى حائطه، أقف حافية، لكن مظهري لا يوحى بالتسول، منحتني ابتسامة مواسية وكوبَ ماء وكرسيّاً.

محطة الترام قبالتي، يأتي الترام، يجتاح المحطة جموع البشر، ثم تمتصهم

الشوارع، خطر في بالي والدي، فهو يركب هذا الترام ذهابا وإيابا بين القومسيون الطبي والمستشفى الميري مستجديا علاج أمي على نفقة الدولة.

في لحظة هدوء أعقبت ذهاب الترام، وقعت عيني على البطيخي، كان مقرراً أن ألقاه لولا عثرتي، فات على الموعد ساعة، جالس على المقعد الرخامي أمام بائع الجرائد والكتب، عيناه تتابعان كل من تقترب، إنه على مرمى البصر، كم تلهفت إلى لقائه فهو قامة فكرية، أدلك قدمي وأحاول الوقوف، خشيت أن تخونني وأسقط.

دنت منه سيدة، كدت أصرخ أنها ليست أنا، إني هنا، تشبهني وإن كانت تسير على قدمين، ولا تنط على قدم واحدة، مدت يدها بالسلام، قرب وجهه منها، تراجعت عن تقبيله، تجاورا؛ مد يده فخذلته، لم ترض يده بالانهزام، ربت على ظهرها بخفة..

فغرت فاها، كنت سأكون مكانها، ويضع يده على ظهري... سارا، يحاول إخضاع يدها المتمردة، خطواتها مترددة، تفكر في الانسحاب الهادئ، خطواته مختالة، خطواتي وراءهما عرجاء.

الوقوف على الجانب الآخر

تارة أكون هنا وتارة هناك، أتأرجح بين الضفتين، كأني أمرح في العين بين الجفنين.

استبدل أبي بالمجداف الذي طالما هددني بأن يهوي به فوق رأسي لتأديبي؛ ماكينة، تفسد رائحة النهر بدخانها وتشتت تفكيري بصوتها.

من الجانب الآخر للنهر، أرى قريتي جميلة بمنازلها القصيرة ومآذنها المزخرفة.. كم أحب هذا الجانب، وعندما يفترشه الظلام، أخاف أن يلتهمني، فأعود إلى قريتي.

من خلف الجسر تكثر الأزقة المكدسة بالطيور، والإوز يعوم في البرك الموحلة، رائحة روث البهائم؛ تخنقني، إلا في بيت خالتي، فقد زرعت العطر والزهور على حواف الشرفة والنوافذ؛ ترويها ابنتها الصغرى.

كل صباح منذ بدأت الدراسة تركب المركب، لا أفك الحبل عن المرسى إلا عند حضورها، ابتسامتها الحلوة لن أنساها.

بعد انتهاء اليوم الدراسي أعود بها، أنزل الركاب وأشير إليها:

ابقي سأنزهك في النهر.

تهز رأسها بالإيجاب متوردة الوجه، أعود إلى الجانب الآخر، أربط المركب:

ظلّي هنا، سأعوم دقائق وأعود إليكِ.

آخذ نفساً عميقا.. أغطس.. أنساب مع النهر في عناق حار لا يفتر.. أمد ظهري على صفحته فارداً ذراعي.. تاركاً جسدي في استرخائه..

تشير لي بكفها الصغيرة.. أنظر إلى السماء، وحدات السحاب البيضاء المتقطعة أرسم منها أشكالاً وكائنات.. تبدو الدنيا لعيني قصراً من لؤلؤ.

يصلني صوتها الرقيق (هيا بنا.. تأخرت) تناولني ملابسي قائلة:

علمني العوم.

أعلمكِ الرسم أفضل.

نصل إلى المرسى، أجد أبي في انتظاري يتوعدني:

أنت اتأخرت بالبت ليه، أمها هتموت عليها.

يمسكني أبي من ياقة قميصي، سرى صوتها:

اتركه يا خال، اضربني بداله، كنت عايزه أتفسح في النهر.

قرب العيد، أوصلها وخالتي على الجانب الآخر، لتشتري لوازمه، أظل في مكاني أنتظرهما، تقفز الفرحة في عينيها العسليتين وهي تنزع الأكياس عن أشيائها، لتريني إياها..

أحضرت الألوان وكراس الرسم، في الطريق أتخيلها مقبلة تسبقها ضحكتها، كزقزقة عصفورة تتبعها جديلتها المنتهية بشريط أحمر.

البيت تلفه رائحة حزن، أمها متشحة بالسواد، جفونها منتفخة، أين هي؟! دخلت غرفتها، كراسها ترقص فيه الحروف أسفل السطور وأعلاها، علامة أسنانها طبعت على الممحاة، الحذاء والجوارب والفستان رُصوا فوق الفراش، شريط جديلتها الأحمر مهمل على حرف الوسادة، أين هي؟! جاء صوت خالتي مشروخا:

أخذوها إلى الجانب الآخر.

هرولت ناحية المركب، وجدت رجال عائلتي يحملون لفة مددوها على ظهر المركب، يداعبها الهواء كأنها تتحرك، ليتها تنهض، كيف أزيح اللفة عن وجهها، أمسك بها، يربت أبي على كتفي دون كلام، ما كانت نظرته منذرة بالعقاب، لكنها مكللة بشيء أكبر منه ومني.

رسى المركب قرب التل (كوم الأفراح).

سرت وراءهم بدون حذاء، الرمال تلعق قدمي، سفوفها تلطم وجهي.

أهالوا عليها التراب، يرتج جسدي بنشيج يبعثر كياني.

ينفث المركب دخاناً يتلوى، يثير الغثيان، أنظر إلى قريتي، أمسح الشاطئ إلى كوم الأفراح، صوتها في أذني:

نفسي أعوم زيك.

يا بت أنا راجل.

تشق ضحكتها سكون النهر.

عشب يتألم

يعلو صوت أبي، أنزوي في فراشي، أجذب الغطاء فوق رأسي، كأن الصوت المجدول من السباب والتحطيم سيسحق هامتي، يصفع باب الشقة معلنا انتهاء المشاجرة.

تلملم أمي حطام المعركة من نثار الأكواب والبراويز، تفتح باب حجرتي، أطل من تحت الغطاء، أرى احتقان وجهها، تنهار على فراشي، أربت على كتفها المرتج بشهقات الأسى.

يثور أبي لأبسط الأشياء، مثل عدم تلميعها حذاءه جيداً، أو إذا أهملت نقرا في جوربه، أو صنعت ثنايا زائدة في بنطاله من المكواة، ترد أمي:

خلاص اعمل حاجتك بنفسك.

يصرخ فيها :

وأنت هنا ليه؟!

قبل إغلاقه الباب لا بد من جملته المأثورة:

لو سبت لك نفسي تمشيني زي المتسولين.

تحتضنني وهي تبكي، حضنها ودموعها ينبضان بأني السبب في تحملها معاملة أبي.

عندما أغضبها بشقاوة الطفولة، تجذبني من ذراعي وتقذفني خارج باب الشقة، وتصفع بابها في وجهي، أتخيلها تضع أذنها على الباب وعينها على العين السحرية، تتابع ضياعي.

أدور حول نفسي، ألا تفتح هذه الأبواب ويأخذني أصحابها من يدي ويعيدوني إليها!

العروس الجميلة التي منحتني الشيكولاتة مع وصل الكهرباء قبالة شقتنا، يتسرب من تحت بابها ضوء هادئ وموسيقى ناعمة.

صوت أقدام تأتي من أعلى، أدخل في ركن مظلم بجوار شباك المنور، مع اقتراب الأقدام ترتج أوردتي، كأن هناك جيشاً يقترب، مر رجل وزوجته وأولاده، نظر إلي الولد الصغير، أخفته بعيني البراقتين، صرخ الولد، أخذه أبوه على كتفه وربت على ظهره، حقدت عليه؛ فقد وجد من يهدئ روعه بينما لا أجده...

تعاركت القطط على كيس الزبالة، الذي أخرجته قاطنة الشقة أسفلنا، استقبلت رجلا مرتبكة بينما انفلت آخر من بابها الموارب، تعثر في كيس الزبالة، وعندما رفع وجهه التقت عيناه بعيني المفتوحتين على آخرهما، كتم صرخته وقفز السلالم.

لحس كلب كانيش يدي، سحبه بائعه بعدما غسله بالشامبو وألبسه طوق شيك، لكن الكلب لم يصبر فكانت رائحة البول تسبقه.

أسمع صرير بابنا، أفرح، فسوف تنتشلني من خوفي ورائحة الزبالة ومواء القطط، أعاقبها وأتركها تبحث عني في صفوف السلم النازلة والطالعة.

تجدني في ركن البسطة المعتم، حقا أخاف الظلام، لكنه في تلك الدقائق يخبئني؛ ففيه أرى من في النور ولا يراني.

تأخذني في حضنها، تمطرني بالقبلات كأني كنت تائهة عنها ووجدتني أخيراً، لصفعة الباب في وجهي مرارة ظلت في حلقي رغم حنانها المغدق بلا حساب، في منامي أبكي وأبحث عن مخرج في سلالم عمارتنا، وأظل تائهة من طابق إلى طابق، والأبواب في وجهي مغلقة، ولا يصاحبني غير خوفي.

كعادتها بعد كل مشاجرة تنام بجواري، لا ترد على ندائه، يتقرب منها، وهي لا تستطيع تخطي غضبها، ترجوه أن يتركها تنام، يداعبها تارة ويسبها تارة، يعلو صوته:

أنتي مش بتاعت جواز.

ترد بهدوء :

عندك حق.

وحبنا؟!

وحدي أرى حبها حبيساً وراء دموعها، يفوح عطرها، يلامس شعرها وجهي، وهى تتأكد من نومي، وأبي يخطو بها إلى حجرتهما.

صباح شتوي

دست أمي حقيبتها وأكياساً لا تحصى في عربة حنطور، أناولها الحاجيات من الشقة حائرة لا أعرف أأستوقفها؟! أم أساعدها في حمل أشيائها قبل عودة أبي؟!

يقف الحصان في خيلاء، منتظرا صعودنا العربة، يلف ذيله في ملل، يرعش جسده نافضا عنه كائنات مخفية، يركل بهوادة كمن يعلن تذمره ونفاد صبره.

انحشرنا بجوار الأكياس، تحرك الحنطور متأرجحاً، ينثني الطريق وينفرد مباعداً بيني وبين بيتٍ هو كل دنياي، ماذا تفعل الدمى بدوني؟ مع من تتحدث؟ اللعبة الجديدة التي وعدني بها أبي، ضاعت الآن كل الوعود، ونزهة يوم الإجازة، كل هذا لأن ماما تريد قطع إجازتها والعودة إلى العمل، أبي لا يوافق، حتى لا يقول الناس إنه لا يستطيع الإنفاق على بيته، وماما تقول: العمل كرامة، حق، لا أعرف ماهية كلماتها، لكني أريدها أن تصمت، وتبقى بالبيت وأبقى مع ألعابي وأقلامي وكراساتي، ولا تقطب جبينها، وأريد أن لا يعلو صوت أبي، ويجعلني أضغط على أذني.

يسير الحنطور في برك موحلة، أخشى أن تزل قدم الحصان، أو أن تكون هناك بالوعة تغطيها المياه، ليكون خروجاً مشهوداً، تحملق عيون الفضوليين، تتجاهلهم أمي متشاغلة بأكياسها.

يسلك الموكب شارع الكورنيش، وجه النهر رصاصي مجعد، يستقبل في تؤدة زخات المطر.

وصلنا إلى بيت جدي، حجب عنا المطر نظرات رواد المقهى المجاور، ألقت أمي نظرات هنا وهناك، لم تجد أحداً تعرفه، أفرغنا حمولة الحنطور في باب البيت، ما زال الحصان قلقا في انتظار أخذ آخر الأكياس، مرق مسرعا عندما تخفف من أحمالنا.

كابوس

بئر مظلمة.. صوت لهاثي مختلط بالأنات، الماء بعيد، تتشبث أناملي بجدران البئر الحجرية، طبقة الطحالب الخضراء جافة باهتة، نور خافت يمنحني الأمل في الخروج وإدراك فوهة البئر.

يدان مشعرتان تمتدان، تتحركان مشجعتين، أحاول رفع يد إليهما وإبقاء اليد الأخرى متشبثة بنتوء في الجدار، عندما تلمسني اليد المشعرة تخونني اليد الأخرى، أسقط في البئر محدثة جلبة من صدامي بالماء، وصيحة فزع تخرجني من منامي.

تأتى أمي على صرختي، تربت على ظهري وتمنحني شربة ماء، أعود إلى نومي، أرى أمي تسير في المطر والأرض برك، الطرق طينية زلقة، هناك العشب تموجه ريح طوبة الباردة.

أراقب أمي، أناديها:

سيري فوق العشب.

ترد:

العشب يتألم تحت حذائي، أريد السير حافية.

لا يا أمي، سيرمونكِ بالجنون إذا خلعت حذاءك رأفة بالعشب.

تجيب:

ليس أمامي إلا السير في الأرض الزلقة.

في كل خطوة تشهق كأنها ستترنح في الوحل، أتابعها بعين، وبالعين الأخرى أرشف جمال العشب المموج.

الكرسي

لم أعد قيد أمي وحدي، شكلت مع أخي وأختي طوقاً متيناً، يطوق جيدها المرمري.

بعد طلاقها أو خلعها لأبي، جلبت أربعة كراس، استدارت حول منضدة أنيقة، فرشت بيتها الجديد دون مساعدة من أحد، باعت مصاغها ودفعته مقدماً لشقتها، التي نسكنها الآن وتسددها من عملها. غرفة وصالة، تريد جدراناً تؤويها بعيداً عن تحكم أبي، ومحاكمة العائلة.

كنا أسلحة أبي المشهرة في وجهها، يمسكنا عنها، ويمنعنا من محادثتها، أو يرسلنا إليها ليذيقها مصروفنا، ولتقدر ما يصرفه علينا.

أحضرت كرسيا، حشرته بجوار كراسينا إلى المنضدة، يبدو أرفع ذوقاً من باقي الأثاث، ترفض أن يجلس عليه أحدنا، نعترض بضيق المكان وصغر المنضدة.

لا تبالي بنظراتنا المتشككة، كلما لمعت الكرسي واهتمت بصدارته لمائدتنا، نحسده لاهتمامها به، ونظرتها الهائمة إليه، كأن هناك من يجلس عليه ولا يراه سواها.

طريق المقبرة

استمر المطر يوما وليلة، النقر المائية تسد الطريق، يسير المارة على جانبي الطريق فوق الأرصفة والأكوام الترابية، صادفت مرتفعا طينيا، متآكلاً من الحواف، عائما على الوحل، الطبقة المتماسكة في أعلاه عجنتها الأقدام في سيرها.

انغمست قدمي، غاصتا حتى الجوربين، بدلت القدمين، انغمستا كأني عصفور، شُبّكت رجلاه في المخيط، خدشت يداي في محاولة بائسة، تشبثت فيها بالجدار الطيني المجاور.

فتحت عجوز باب بيتها، قدمت لي زجاجة مياه، أفرغتها على قدمي بعدما خلعت فردتي الحذاء والجوربين، منحتني شبشباً قديماً، قلتُ سأحضره في زيارتي القادمة للجبانة، ودعتني بابتسامة مواسية، اتجهتُ إلى البوابة المشرعة، التي تطل منها رؤوس المقابر.

أشق القبور متمتمة بالسلام على الأموات، أحمل في يدي كيسا به حذاء وجورب، وفي اليد الأخرى خوص أخضر اشتريته من البائع المرتكن إلى البوابة.

وقفت أمام قبر مخطوط عليه اسم جدي لأمي، لكني لا أتخيل أن أمي بالداخل.. لم أحضر الدفن، هناك علامة إسمنت حديث في الأسفل، حين التقم القبر أمي كان لا بد من سد فيه، لمحت أبي، ابتسمت له وهمست لأمي فرحة؛ جاء أبي، نثرت الخوص فوق القبر، جلستُ على الرمل الناعم، فتحتُ المصحف على سورة الرحمن، يتبادل أبي التحية مع زائرات القبور، يشتتني صوته ويجعلني أعيد القراءة من البداية، هاجمني النمل، وقفتُ أنفضه عني، وقعت عيني على قبر مهدم، أخافني، رددت الفاتحة وفي نيتي ترك المكان حالاً، استوقف أبي مقرئاً، استمعتُ إلى آيات الذكر الحكيم ناظرة إلى السحاب ورائحة أمي تعبق المكان.

غسلتُ الحذاء ولمعته فظل رطبا، نقعتُ الجوربين، لم أفلح في إزالة اللون الطيني والرائحة العطنة، ألقيتُ بهما في سلة المهملات، جللت أصابع قدمي تكويرات حمراء، تؤلمني، أرغمتني على ارتداء حذاء أوسع وجوارب صوفية، لتدفئة القدمين المتورمتين، كأني أخذت عليهما مئة عصا فطفحتا بالاحمرار والألم، أتذكر طفولتي؛ لم أعلق في الفلقة أبداً، ولا حتى الضرب على اليدين، في الإعدادي حز في نفسي نهر المعلمة لي عندما كثرت أسئلتي، تقول بزهق:

لا تشتتي أفكارك، ما أقوله هو المهم، احفظي ما في الكتاب.

أبتلع أسئلتي وأسكت، لا ألتفت حولي حتى لا أرى الابتسامة الشامتة في عيون زميلاتي، وتصلني كلمة (فذلكة) ممطوطة مغناة.

في الزيارة التالية، اختفت برك المياه والوحل، انتبهت إلى التل الطيني، الذي غرست فيه الزيارة السابقة، رأيته مغطى بالحشائش، وفي نهايته إلى جوار الحائط؛ ريحانة مغمضة البراعم.

أحدق في واجهة المنازل لأتذكر على أي الأبواب أطرق، كي أرد الشبشب لصاحبته، فُتح باب وأشارت لي طفلة، سألت عن العجوز، لم تجب، أخذت كيس الشبشب وأغلق الباب، فاجأني المطر، أسرعتُ إلى بوابة الجبانة أحتمي تحت مظلتها.

وجدتُ أبي يتحاور مع المغسلة، التي تعمل إلى جانب تغسيل الموتى خاطبة، حين انتبه لوجودي أشركني في الحوار وكلفني بمرافقة المغسلة إلى من رشحتها له، أرى قبر أمي على البعد ويمنعني المطر من الوصول إليه.

كالمنومة مغناطيسياً سرتُ وراء المغسلة، أصبح حال الطريق كالزيارة السابقة مع رتوش أخرى، عجنت الحشائش في الطين، رصت قطع طوب وحجارة بجوار الجانب المتهاوي من التل الطيني، خطوتُ فوق الحجارة كما فعلت السائرة معي، تقلصت عظام قدمي، لم أستطع السيطرة على رعشة ركبتي، وثقل الحجر فوق كاهلي.

مجنون الحي

قبيل انتصاف النهار ظهر في حينا، يسأل المارة عن سجائر، يفتش في ملابسه الرثة عن أعواد ثقاب، شعره ملبد، وجهه ملطخ، يمد يديه القذرتين، قدم له شاب رغيفاً، أخذه وطلب (حتت) باذنجان مخلل.

يفترش الرصيف، يأكل بتلذذ، يشعل سيجارته، ينفث الدخان، يغنى، يرقص، يضحك، يمسح عرقه في كمه المتسخ، يستكين على الرصيف.

ينتفض واقفا، يسب، يلعن، يركل الهواء، يتفادى ضربات وهمية، يصرخ للكمات تركعه، يخرج الناس من نوافذهم وشرفاتهم وأبواب دكاكينهم.

ألفوا صرخاته.. الصبية يشاكسونه فيشتمهم، يسبونه ويضحكون، يركلونه ويصرخ، يدمونه ويضمدون جرحه.

في استكانته التي تعقب موجة هياج وصراخ، يتحدث بوجه آخر كأنه ينشد شعراً.. في مرة من مرات هدوئه قال:

أتعرفون؛ لست وحدي الغريب في ليل لا يعرفني ولا يعرف غيري، يحتوى الليل الغريب غرباء، يلوذ الغرباء بغريب أكبر، يحتويهم ويرخى عليهم ستارته ويبهجهم بنجومه الخارجة من الخدمة من مئات سنين ضوئية.

في تحركاتنا العشوائية يغتاظ الليل، لأننا نزعجه، تعمدت إزعاجه بغبائي وتفاهتي، فما كان منه إلا أن أدار لي ظهره وتركني عند بوابة الفجر.

يحدق فينا بعينيه الحمراوين كأن بهما رمداً، تأكد من انتباهنا مواصلا كلامه:

كل ما في الأمر يا أقراني الغرباء، أنكم متضمخون بضوء النجوم والقمر ورائحة زهر الفل، حيث يفوح زهر الفل أكثر في الليل.. أتنهد وحدي طريداً أتوسل: يا ليل ضمني!!

همهمنا؛ يقصد أنه لا ينام.

تتعامد الشوارع على شارع البحر ، يطوق النهر كورنيش مزخرف، أسفله رصيف من الخرسانة، يمشط المجنون الشوارع ويصل إلى النهر القريب من حينا.

الحكايات التي يسردها في أوقات هدوئه، جعلت الصبية يعطفون عليه، لم يعد يصرخ مثل بداية عهده بحينا، ترسل إليه الأمهات عشاءه من طبخهم، وأغطية متهرئة، يفرشها ويتدثر بها، سأله الأولاد من أين جاء؟ قرأ في عيونهم الاهتمام، فباح هامساً:

زحمة كانت مدينتي، بالكاد نستطيع التحرك، فسر أهل الرأي الزحام بأنه يرجع إلى أمانينا المنتفخة بجوارنا، وليس باستطاعتنا تحقيقها، الأماني تعيش على هوائنا، تنتفخ على حسابنا، على من يرغب في العيش الآمن؛ التخلي عن أحلامه.

الميكروفونات في كل مكان، تذكرنا بالرضا بالهواء والماء، ولا داعي للأماني المتطفلة، وإن جاء الطوفان حط ابنك تحت رجليك.

أين الطوفان؟! ترتفع الأصوات، أيها الهمجي أنت لا تعرف التمدن، أجهد الناس أنفسهم في فصل أمانيهم عنهم، كان منظراً تراجيدياً، تجري الأماني اللقيطة وراء من تنكر لها، رد الكبار: لا تخافوا سوف يتحللوا ويتحولوا إلى نيتروجين، يمد تربتنا بالخصوبة.

كومت الأماني المطرودة على قارعة الطريق المؤدي إلى خارج المدينة، كانت أفضل حالاً منا، فقد وجدت من يسعد بها.

هربت بحلمي، خوفي من العصف بي جعلني أمعن في الهرب، إلى أن جئتكم بأحلام عفنة، امتد عفنها إلى عقلي، ولكنها ما زالت تنير جذوة روحي، أعرفتم من أي البلاد أنا؟!

تابع قائلا:

وحيدا تسير في الدروب الوعرة، قهقه بصوت مرتفع، أكمل:

أضحكتني كلماتك المنمقة.

يلتفت حوله بصوت مذعور:

من يتكلم؟

تعلو ضحكته، يدور حول نفسه، قائلا:

من يضحك؟

يركل الهواء، ينفلت من بين شفتيه السباب، ينكمش في جلسته محتكاً بالجدار، يرفع رأسه، عيناه زائغتان حمراوان، قال:

عليك وأنت تهان أن تدرء عن نفسك وجع المذلة، بأن تنسلخ عن ذاتك وتحلق في عالمك المتخيل، هأنا في عالمي، أرى أناسا طيبين، يعطفون على المسكين، وإن ضحكوا منه أو تسلوا بالفرجة عليه، ففي داخلهم يشفقون عليه.

خجلنا من أنفسنا، زادت الألفة بينه وبين الأولاد، طلب منهم أوراقا وقلما، في الصباح أطلعهم على رسمه، رسم رجالا من الحي يطاردون صبيا تائها، تعرف أهل الحي على المرسومين، يسأل الأولاد أين الصبي المطارد؟ قال :

بعدما أحكموا وثاقه ذهب اثنان يؤمنان الطريق من جهتيه، والآخر جرى مذعورا عندما قلدت صوت الغراب، خبئتُ الولد بجواري على الرصيف وعندما فقدوا الأمل في العثور عليه، مشيت معه إلى الكورنيش، وهناك تذكر طريقه، تركته يصل إلى بيته متابعا له من بعيد، هز لي رأسه مبتسما عندما وصل الأمان.

استمع إليه الأولاد بتأثر والمعتدون بحقد وتكذيب، بعثر فراشه كتهديد بالطرد من الحي، منعهم أهل الحي عنه، باصقين في وجوههم المكشوفة.

في الليل عندما أغلقت النوافذ والأبواب، تحلقوا حوله، كشفوا غطاءه، لكزوه، ارتفع صوته، سمعوا همهمة لنسوه في النوافذ، تركوه، بعد قليل جاء من يوقظه ويمنحه سيجارة، اعتدل في جلسته، قلب السيجارة، قال:

سيجارة مخدرة.. عايز تقتلني من غير صرخة.

انتفض الرجل وقال لمن معه:

الراجل مكشوف عنه الحجاب.

جاء آخر، جلس بجواره، قدم له لفة صندوتشات، تشممها وأعادها إليه، ارتعش الرجل عندما نظر في عينيه وقال:

دا راجل بتاع ربنا.

في الصباح عرض على الأولاد رسماً لرجل يغطي وجهه بتلفيحة، يتسلق المواسير، يخترق النوافذ، يلقي بالمسروقات لآخر تحت النافذة، وآخرَ معروفاً في الحي، يراقب الطريق، أحبه أهل الحي وبات الفتك به هم الآثمين.

وقع في حب النهر، يقف أمامه بالساعات، يتخطى الكورنيش، يعطي ظهره

للمدينة، يتعب من الوقوف، يجلس على حرف الخرسانة العائمة، لاحظوا كلامه مع النهر والطيور البيضاء المرفرفة والمستريحة على حواف المراكب، وأنه يغمض عينيه ويتنهد للنسمات وهي تداعب شعره.

اختفى، بحث عنه أهل الحي، فتشوا أشياءه، وجدوا ما منحوه إياه من لبس وفرش، رويت عنه الحكايات، فقد رأوه يحدث النهر، قالوا جنية البحر تزوجته، تأكد ظنهم عندما خرجت جثته من النهر، قال من رآها :

دا ميت من ساعات.

ومعنى هذا أنه عاش تحت المياه ما يقارب ثلاثة أيام.

دفن في مقبرة، كتب عليه ولي الله، زاد من اعتقادهم أن المعتدين، ممن رسمهم، قُتل منهم؛ واحدا بعد آخر، ونذر من تبقى منهم نفسه لخدمة ضريح الولي التماسا لسماحه، فقد فتح الله تعالى عليهم به طريق التوبة.

زرعوا أصص الزهور حول قبره، أحاطوه بجدران وقبة، ومريدين وشموع وصندوق بقفل وحكايات عن أحلامهم بصاحب المقام وهو يبتسم.

ملحوظة 1: حكى الأولاد الذين أصبحوا شيوخا الآن لأحفادهم، أن خدام ضريح الولي في ليلة اختلفوا على صندوق النذور، فتقاتلوا وقبل أن يلقوا حتفهم؛ اعترفوا بكمونهم له خلف القوارب، راقبوه وفي لحظة مقدرة، استجمعوا قوة شرهم، ودفعوه من ظهره، فسقط على وجهه في النهر.

ملحوظة 2: من محطة القطار البعيدة عن حينا، وفد مجانين كثر، لكنهم لم يبلغوا أبدا منزلة مجنون الحي.

الإشارة

طابور طويل، كل ما أعرفه أنه غايتي، أحاول إقحام نفسي فيه، لا أصمد، أتراجع خارجه، درت حوله حين ابتسمت لمن صادفتني ابتسامته، مد لي يده، لم أتردد، تشبثت به وتولى هو تثبيتي، ما أجمل أن يكون هناك من يهتم بأمرك.. تطوقني رائحة العرق والأفواه والأحذية ونظرات صاحبي المعنفة على أي التفاته.. كل هذا وما زلت في ذيل الطابور.

تشجعني نظرات من حولي، عاينت من يستطيع أن يقدم أكثر، تعلقت من يد إلى أخرى، أبتسم في وجوه وأعبس في وجوه، فجأة يتحول الطابور إلى حبل أتعلق به، أصرخ والناس تسير من حولي ولا تسمعني، أصحو من نومي مبهورة الأنفاس.

اتباعه بشغف، نظرته تقول إني متصنعة ونظرتي تقول إنه يحق لك أن تفرح حين أسكنك عيني، حين أحدث نفسي أقول: تواضعي الآن أو ذوبي انكسارا لحظك، الذي يرتد إليك خائبا.

تتجاهلني عيناه وفي التفاتة جريئة، يمنحني نظرة حانية، أضحكتني طريقته، ذكرتني بألاعيبي، المفروض أن أحدد مصلحتي لأرسم الطريقة المثلى للإيقاع به، ابتسمت.. لا بد أنه يفكر فيما أفكر فيه.

طوى أوراقه منهيا محاضرته، قاربت الوصول إلى مكانه القريب من باب القاعة، وجدت من جئت معه بسيارته يشير إلى:

فينك.. كل دي رنات؟!

تنبهت:

التليفون صامت.

سحبني من يدي، عبرت وبنظرة جانبية وجدته يتابعني، لماذا أسلم قيدي لهذا الهمجي وأتبعه طائعة.. كل ما بيننا أنه قدم لي كتباً ووجبات جاهزة وقدمته لأوساط مشهورة.

تلفت أبحث عن فتاي، رأيت امرأة وافرة الزينة تبادله الضحكات، سار معها إلى سيارتها، تجاورت سيارتانا في الإشارة، نظرت إليها، وإلى المقود أمامها، ونظرت إلى جاري وجدتهما متشابهين.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه جاري، أشار إلى من يجلس الشاب بجوارها وقال:

كأني أراك بعد عشرين عاما.

العرق أزال المسحوق المرطب والملون، وكدت أشعر بجلدي يتسلخ.

العاشق

بخطى مرحة خلفت وراءها المباني والشوارع إلى الغيطان، التي طاردتها المباني فخنقتها في الأطراف.

تتخطى السياج المضروب حول الزراعات؛ الذي يمزق جلبابها.

أعرفها منذ الصغر، أكبرها بأعوام، خطفت عيني، أمشط البلدة في العصارى بحثا عنها، معروفة برزانتها، عندما رأيتها تسلك الدرب المؤدي للغيط، ظننت أن لها عشيقا في الغيطان تواعده، بفضول مؤجج بالغيرة؛ تابعتها.

تفرد ذراعيها، تلف حول نفسها، وجهها في الليل يضيء بهجة، تدخل السعادة على قلبي، تخرج من البئر الدلاء، تسكبها فوق رأسها وصدرها، تعاود الدوران حول نفسها كأنها تحتضن الدنيا، تغازل النخلات، تداعب وريقات الجوافة، تركع أسفل النخل، تلملم البلح الأخضر.

خدش نباح كلب السكون، أعقبه عاصفة من النباح، عكر عينيها القلق، وددت احتضانها وطمأنتها، حسبت حسابا للناس؛ عندما يخرجوا على جلبة الكلاب ويروننا؛ سيظنون بها السوء، تابعتها من بعيد.

تعدو المياه، تقطر من ضفيرتها، الكلاب تطاردها، السياج ينهش جلبابها.

في المرات التالية عندما نبحت الكلاب ألقت إليهم بأكل جمعته في منديلها فسكتوا عنها، أشعر أنها تطمئن لسماع أنفاسي، وتبتسم كلما ضبطت الحب يفيض ويرسو على أجفاني.

غابت عدة ليال، بحثت عنها، بيتها ساكن، الغيطان تفتقد أنفاسها، الدلو مهمل على جنبه بجوار البئر، رائحة البلح الأخضر عفنة، الكلاب لا تأنس إلى المكان، أجمع مزق جلبابها من بين لفات السياج، وقد باتت شرائح باهتة.

كانت هذه هي الحكاية التي حكاها لزوجته وهي تمشط شعرها، والحكاية تفسر ما حدث منه الليلة حين ألح عليها أن ترتدي جلبابا ليس لها واصطحبها عند البئر، صب عليها دلاء المياه، طلب منها أن تفتح ذراعيها وتدور حول نفسها، يجري وراءها في الحقول، يختبئ منها وراء النخل، يرد الصدى ضحكتهما، احتضنها وبكى، رجاها أن تبقى معه، قبل يديها واعدا بالبقاء تحت قدميها، تمدد على الرمل متوسدا ذراعه، وبالذراع الأخرى يضمها لتتوسد صدره، تمتم باسم غير اسمها، كرره، نظرت إليه وجدته هائما في عالم آخر.

حاول قراءة قسماتها، تجدل ضفيرتها وتفكها شاردة، ما حدث لم يكن مفاجأة، فمنذ الليلة الأولى لهما وهو ينادي اسم حبيبة غيرها، كان عزاؤها أنه هو الآخر ليس الأول في حياتها، لكنه أصبح كل شيء.

خرجت من جمودها نازعةً عنها الجلباب، ألقته بعيدا من شرفتها المطلة على الغيطان، شبحاً على سياج في آخر المزرعة.

طوقته، تجاوب معها في عناق مهوس بإثبات حسن النية، تقلبت في الليل، لم تجده على أطراف أصابعها، وصلت إليه في الشرفة، وجدته هائما ينظر إلى الجلباب العالق، في هذه المرة رأت الجلباب ترتديه حورية تدور حول نفسها، وفى عينيها ابتسامة رائقة.

الشَّرَكُ ثلاثة مشاهد

همسا كان صوتها، انجذبت إلى سرها بإصبعين، تعودت أن أطفئ بهما الشموع، حاولت أن أطفئ فتيل الخوف الذي يراوغني مستعراً، أنفاسها دافئة، أشعلت جانب وجهي بسخونة، جعلت الدماء تحتقن في وجهي وعبثاً حاولت التركيز.

تفاجئني يدي الأقرب إليها بالتحرك لدفعها؛ وشيطان داخلي يستمرئ الدغدغة ويحاول إقناعي بفرد شباك الصيد الآتي، فتحت كفي ألتقط تفاحتي.

ميزت كلماتها من بين أرجحة القطار، وضجيج الزحام:

سرقت نقودي

الخجل يقطر من قسماتها، رقيقة كنسمة في يوم حار، بسطت لها يدي بما تريد، جاورتها ولففت ذراعي حول كتفيها، في محاولة اختبار لرد فعلها، احمرار خديها يثيرني، ابتسامتها تشجعني في مصادماتي المقصودة.

دسست في يدها بطاقة لي، اتفقنا على النزول معا في محطة واحدة.

غابت عن عيني، ما زالت محطتنا بعيدة، وقف القطار، نزل ركاب وصعد غيرهم، أذكر نفسي بأن محطتنا لم تأت بعد، تحرك القطار، لمحتها على الرصيف تمزق البطاقة وتنفضها بعيداً.

***

صاح الولد: اصطدت عصفورا أكحل.

بتلقائية نظرت إلى صيده مسديا نصائحي في قص ريش الجناح وطرف المنقار، استرق النظر إلى عينيها، تعودت على الاستهجان في نظرتها، لكنه لم يتجاوز العينين، قلت: ألا تفرحي بصيد ابنك؟!

قالت وعيناها لا تفارق صفحة النهر:

صياد كأبيه.

فاجأتني بتحريك المجداف في الاتجاه المعاكس، صرخت في وجهها، هجمت على العصفور في يد الولد، تشبث الولد بصيده، عضت يده، حررت العصفور، ملأت الابتسامة وجهها وهي تتابع ارتفاعه، لم تلتفت لصراخ الولد، الذي بات يجرف المياه من النهر بيده ويمطرها بها.

قالت :

أوصلني إلى الشط.

هززت رأسي بعلامة الرفض.

قالت :

سألقي بصيدك للبحر.

تأرجحت ردودي بين التهدئة والتهديد بإلقائها في البحر، صبغت عيناها بالألم عندما أثنيت على عداء الولد تجاهها.

تسربت المياه إلى القارب، في البداية لم أهتم، زادت، فحصت مكان التسرب، سددته بمزق الثياب.

جرفتْ المياه من القارب وجففته ورتبت الصيد، انشغلت وابني في الصيد وتركتها لصمتها، أناديها لا ترد، تلفت حولي أين تختبئين؟ في الماء أم السماء؟ أشار الولد أنها على بعد منا، تعلقت بعوامة.

تفتحت شهيتي للمطاردة في تغير اتجاه القارب، اندفعت المياه بداخله، حاملة مزق الثياب المحشورة بين ألواحه، عندما قاربت الشمس على المغيب، كان أثرها قد ضاع والولد يحدق وأنا محنىً أنزح المياه.

***

يقف بين طيوره المحنطة، يدور حولها: أأطلق سراحكم اليوم؟!

يضحك، يتخيلهم يتوسلون إليه أن يتركهم لديه آمنين بأعينهم الزجاجية، وبطونهم المحشوة قطناً وقشاً، وريشهم الباهت وأسنانهم المتحجرة وعظامهم المتيبسة.

صورتها في المجلات والجرائد تطارده في نومه وصحوه، هذه من توسلت إليه يوماً ألا يتركها تواجه أهلها، بورقة عليها اسم ملفق لرجل هرب من حياتها، بعدما امتص رحيقها، حزت في نفسه دموعها، من يومها؛ تجنب الأماكن التي تذكره بها.

هالة الشهرة والتقدير التي تحيطها به أسرته؛ صمم على الوصول إليها.

قدمه أحد أصدقائه إليها، حدثته نفسه: هل أنتظر أن يعرفني عليها أحد..؟ قطعا تعرفني عيناها بلون العسل، ابتسامتها العذبة، يداي تحفظان ملمسها، اليوم ستعود إلى أشيائي، همس في أذنها:

إني حبيبك العائد.

نظرت تجاهه باستنكار، بوصفه شخصاً به هوس؛ يعاكسها.

المحتويات

السجينة	2
روضة	4
رؤية	7
السير بمحاذاة الساحل	10
الأريكة	13
السترة	16
الصخرة	18
العرس	20
خروج	25
لقاء	27
البعاد	31
هذيان	34
عثرة	39
الوقوف على الجانب الآخر	41
عشب يتألم	44
صباح شتوي	47
كابوس	49
الكرسي	50
طريق المقبرة	51
مجنون الحي	53
الإشارة	58
العاشق	60
الشرك ثلاثة مشاهد	62